مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد الخامس – المجلد الثاني
أغسطس 2018 م
ISSN: 2522- 3380

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

سنن التغيير بين حركة التاريخ والمفهوم الديني المجتمعي "صدر الإسلام أنموذجاً"

نورة أحمد حامد الحارثي
قسم التاريخ || كلية الآداب || جامعة بيشة || المملكة العربية السعودية

الملخص: هدف هذا البحث إلى دراسة سنن التغيير في ضوء مفهومَي حركة التاريخ والمفهوم الديني المجتمعي في فترة صدر الإسلام، وذلك بتناول قضايا مفصلية شكلت سنة من سنن حياة المجتمع العربي في عصر الرسالة الأول، وهو أن التغيير يشكل أساساً في تشكيلات مفاهيم الحياة الدينية والمجتمعية، ومن أهم القضايا التي يناقشها هذا البحث: إذابة مفهوم الزعامة التقليدية قبيل فجر الإسلام، والتحول الديني من عبادة آلهة وضعية متعددة إلى عقيدة التوحيد، والتحول المجتمعي نحو العدالة والمساواة ونبذ العبودية والفوارق الاجتماعية.

ويسلك البحث في تناول هذه القضايا من الناحية المنهجية تطبيق النص القرآني والسيرة النبوية مع توظيف التراث لضرورات التغيير ووضعها في إطار بعض الواقع الذي نعيشه اليوم.

الكلمات المفتاحية: حركة- الأمة- التغيير- فكرية- الإسلام- التحولات- المجتمع.

توطئة:

أدت التحولات الكبرى التي شهدها عصرا فجر الإسلام وصدره في الحجاز ثم أرجاء الجزيرة العربية وجوارها في بلاد الشام والعراق ومصر، وانطلاقاً نحو بلاد ما وراء النهرين شرقا وآسيا الصغرى شمالاً وشمال إفريقيا غرباً إلى التغيير في منظومة الفكر في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والثقافية ضمن الوعي الجديد المنطلق من مفاهيم النبوة ووحي السماء والرسالة الإسلامية، التي تُعدِّل مسارات حياة كل الناس، بحيث لا يُهمَّش المرء لأي اعتبار تصنيفي، وقد نما هذا الوعي، وازدادت أعداد حملة هذه الرسالة، وانتشروا بها في الجغرافيا البشرية والطبيعية ما قدر الله لهم من الانتشار، فتعددت الأجناس واللغات والثقافات، فكان التحدي في جعل هذا التعدد مكتسباً حضارياً مؤسّساً على الانصهار في منظومة الدعوة إلى الله، ضمن المنهاج الإسلامي الذي يدعو إلى التي هي أحسن، وفق شرطي الحكمة والموعظة الحسنة.

نشاهد أن التغيير الذي قاده الإسلام حقق مكتسبات شكّلت فتوحات معرفية، وخبرات تلاقح علمي ومجتمعي وثقافي بين شعوب العالم الإسلامي المختلفة، وصل بهم إلى معنى الأمة وفق اعتبارها العقدي الإسلامي، وكان هذا أكبر العناوين في عملية التغيير في الاجتماع البشري بين شعوب وأجناس يختلف فيها تصوّر كل منهم لثقافة التغيير والمحكوم عادة بقواعد المجتمعات الثقافية والاجتماعية والموروثات الدينية.

مشكلة البحث:

التغير والتغيير حالتان قادتا المجتمع العربي إلى التحوّل من حالته التي كان عليها قبل الإسلام إلى مجتمع تجاوز الركود والسكونية حصيلة تراكمات موروثة غير راشدة، أسهمت في شيوع أنماط ثقافية وفكرية ودينية تقف أمام أي محاولة للتغيير، فوقفت عند نقطة الاجترار وعدم الإنتاج، فتباعدت الهوة المادية والمعنوية بين متطلبات نشوء جهد مجتمعي يتصدّى للواقع بكل ألوان التخلف الثقافي فيه، وأصبح من المستحيل ظهور تغير يمكن أن يحقق

مصالح المجتمع، ولم يكن هذا ممكناً إلّا بظهور رسالة الإسلام التي جوبهت بالرفض والصدود والمقاومة من طيف المجتمع العام.

والمسلمون اليوم على مفترق طرق كبيرة بين الخير والشر، وبين روح الإسلام الحقيقية، وبين الفئات الضالة التي انتهجت الإرهاب تحت دعاوى الغطاء الديني، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى توضيح رسالة الإسلام السمحة، والتي قادت البشرية إلى تحولات كبرى، غيّرت وجه الإنسانية، وعدلت مساره نحو العدالة والأمن والسلام ونبذ العبودية، تلك هي إشكالية البحث التي نستقي فيها من السيرة النبوية التي اتخذت القرآن الكريم دستورا ونبراساً ونوراً لهداية البشرية.

أهداف البحث:

يهدف إلى التعريف بأن حركة التاريخ في الإسلام رافد مهم من روافد الوعي والتفكير الذي يؤثر في المستويات المجتمعية كافة، بحيث تَعرِف الأمة موقعها بين غيرها من الأمم، وينقلها في مسيرتها إلى الريادة في مسألة الانتقال من منظومة الأمة العرق إلى الأمة الدين، والسعي إلى أن يتجاور المجتمع البشري حدّ الأمة أو العرق إلى الانصهار الديني. كما يهدف البحث إلى دراسة واقع المجتمع العربي والإسلامي في فترة صدر الإسلام، وما تَجاذَبه من انقسام الرؤية نحو التغيير؛ فئة تقبع في ماضويتها فلا تريد تحريك الأمور عما هي عليه، بحجج الحفاظ على تراث الآباء والأجداد، واستمرار الزعامات التقليدية، والعادات المجتمعية، والإنكار للدين الجديد. وفئة ثانية تستهدي بالقرآن الكريم ورسالة الإسلام التي بَشَّر بها سيدنا ونبينا محمد ﷺ وقادها معه صحابته ﷺ، وكان من أهم سنن الإسلام سنة التغيير بوصف ضرورة وحتمية، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]. وتشكل هذه المعادلة بين فئتين من فئات المجتمع العربي المسلم الجديد إلى فهم دراسة حركة التاريخ، وضرورة التحولات والتغير والتغيير في المجتمع العربي الإسلامي في عهده صلى الله عليه وسلم.

أهمية البحث:

يحمل عنوان هذا البحث آفاقاً كبيرة وعناوين عديدة، **ولكننا رغبنا في التركيز على ما يحقق الأهداف التالية:**

أولاً: حركة التاريخ تمضي إلى الأمام دوماً، والأمة الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى فهم حقيقة حتمية حركة التاريخ، وكيف لها أن تكون ذات دور مركزي فيه كما كانت، وكما أمرنا الله أن نكون، لا أن تكون تابعة لتجاذب القوى في العالم.

ثانياً: تحقيق الفهم في أن حركة التاريخ تسير بحتمية البدايات وصولاً إلى النهايات، وأن الله محاسب الناس أمماً وشعوباً وديانات عما فعلوا، وقد وعى المسلمون في العهد النبوي هذه الحقيقة فتعاملوا في تسيير دفة التاريخ وفق المنهج الرباني كما أمر القرآن الكريم، وعلى هدي سنة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [1].

ثالثاً: تلمس بعض مظاهر التغيير في المجتمع الإسلامي في عهد النبي ﷺ وكيف أن الله جل في علاه، قد جعل من سنن الكون الحركة لا السكون، والتغيير وفق سنن وقوانين ثابتة ووفقا للناموس الكوني، وقدرة الإنسان أن يكون فاعلا فيه، فما تحول المجتمع العربي الوثني إلى عقيدة التوحيد وحمل رسالة الإسلام إلا البرهان الساطع على ما كان

(1) سورة: آل عمران: الآية: 137.

(1) سورة: المائدة: الآية: 109.

على عاتق المجتمع الإسلامي من ضرورة النهوض بالدين الإسلامي، الذي دعاهم فيه النبي ﷺ وأيّده، وصدّقه، وضحّى من أجله كثير من الصحابة رضوان الله عليهم.

رابعاً: واجهت النبي ﷺ وصحابته والخلفاء الراشدين ﷺ من بعده صعوبات وعقبات ومقاومة شرسة أرادت أن تُوقِف التحوّلات الكبرى في المجتمع الإسلامي آنذاك، ويرمي هذا البحث إلى تبيين بعضها، وكيف عالجها النبي ﷺ، وكيف اقتفى من جاءوا بعده ذات النهج والأثر في حركة التاريخ، وقيادة دفّة الأمور في المجتمع الإنساني بأكمله.

حدود البحث:

- **الحد المكاني**: المتمثل في الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق.
- **الحد الزماني**: العهد النبوي بشكل أساسي والتطرق إلى العهد الراشدي.

التغيير: المفهوم والقضية:

التغيير لغة: التبديل[2] أو الانتقال من حالة إلى أخرى أو من وضع قديم إلى آخر جديد[3]. والتغيير في البعد الاشتقاقي اسمٌ اشتق من الفعل غيّر، أي بدل وحوّل وجعل الشيء على غير ما كان عليه[4]، وقد وردت لفظة غير: بمعنى سِوى، وتغير الشيء من حاله: تحوّل، وغَيرَه: حوله وبدّله[5]. يقول ابن منظور: "وتغير الشيء عن حاله: تحول، وغيره حوّله وبدّل كأنه جعله غير ما كان"[6]. وهذا غير ذاك أي سواه وخلافه[7]. وجاء في مختار الصحاح التغيير هو إحداث شيء لم يكن قبله، والانتقال بالشيء من حالة إلى حالة أخرى[1]. والتغيير "إحداث شيء لم يكن قبله، وهو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى"[2]، وقد جاءت في القرآن الكريم حاملة ذات المدلولات اللغوية تقريباً[3]، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4]. قال ثعلب: حتى يبدلوا ما أمرهم الله[5].

(2) الفراهيدي: خليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج8، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ص: 45.

(3) مطلوب: أحمد: معجم المصطلحات البلاغية، (بيروت: مكتبة لبنان، 2000)، ص: 394.

(4) إبراهيم: مصطفى: وأحمد: عبد القادر: والزيات: أحمد حسن: ومحمد: علي النجار: المعجم الوسيط، (تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، ص: 668.

(5) ابن سيده: علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ- 2000)، ص: 441.

(6) ابن منظور: محمد: لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر حيدر، راجعه: عبد المنعم إبراهيم، ج5، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ- 2003)، ص: 40.

(7) الفراهيدي: العين، ج8، ص: 441؛ القزويني: أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (لبنان: دار الفكر، 1979)، ص: 404.

(1) الجرجاني: علي بن محمد: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1984)، ص: 87.

(2) الجرجاني: التعريفات، ص: 65.

(3) عبد الباقي: محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار الفكر، 1987)، ص: 507.

(4) سورة الأنفال: الآية: 53.

(5) ابن منظور: لسان العرب، م5، (لبنان: دار صادر، د.ت)، ص: 3325.

والتغيير نشاط وفعل يحدث تبدلاً جزئياً أو كلياً من أجل التأقلم مع الأحداث والتحوّلات في المجتمع والبيئة المستهدفة[6]، وهو الانتقال من حالة إلى أخرى في الزمان والمكان[7]، والتغيير هنا حالة إيجابية تتلاءم مع واقع جديد[8] يحقق للناس حياة أفضل[9].

يعتقد الباحثون في التاريخ والحضارة بأن دورة الحياة في أي دولة تخضع لمنطق حياة الكائن الحي من حيث بلوغها الهرم بمرور الزمن بعد ارتفاع شأنها وبلوغها ذروة سنام المجد[10]، وأن ما يحسب للدول هو التغيير الذي يكون أساسياً في طبعها، ولا يعتد بالتغيرات العارضة الخارجية[11]. فإذا بلغت الدول غايتها "من طبيعة التمدّن الإنساني والتغلب السياسي"[12]. فإنه من المحتم إن تسلك في منطق دورة الحياة حتمية الهبوط والضعف والتلاشي[13]. ويذكر ابن خلدون "أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال"[14]. و"إنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينيّة من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدّين على الجملة"[15] فإذا انصرفت العرب إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التنافس، وقلّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة"[1].

كلمة التغيير بهذا اللفظ، لم ترد في مصدري التشريع الأساسيين؛ القرآن الكريم والسنة النبوية، وإنما جاءت في القرآن الكريم، من ذات الجذر اللغوي، المفردات: مغير، يغيروا، يغير، يتغير، وقد جاء في سورة الرعد المعنى الإسلامي لمفهوم التغيير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2]. وفي هذه الآية الكريمة يأتي التغيير تكريماً للإنسان، ويتجلّى هذا التكريم في الآتي:

أولاً: الإنسان كريم لا تتغير نفسه، وإنما يتغير ما بها، فالتغيير يكون عادة على وجهين: تغيير صورة الشيء دون ذاته، والثاني تبديل الشيء بغيره[3].

ثانياً: أن الإنسان هو الأهم في المجتمع، وبه يبدأ التغيير.

ثالثاً: وحتى لا يكون التغيير غريباً مستهجناً قسرياً فقد جعله الله من داخل الإنسان، فالتغيير داخلي يبدأ بما في النفس.

---

(6) عقيلي: خليل بن عمر: الإدارة: أصول وأسس ومفاهيم، (الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 1997)، ص: 356.

(7) عثمان: فاروق السيد: قوى إدارة التغيير، (مصر: دار الوفاء للنشر والتوزيع، 2000)، ص: 9.

(8) عبد الباقي: صلاح الدين محمد: السلوك الفعال في المنظمات، (مصر: دار الجامعة الجديدة، 2004)، ص: 380.

(9) المقدسي: أنيس: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، (بيروت: دار العلم للملايين، 1998)، ص: 11.

(10) ابن خلدون: عبد الرحمن: المقدّمة، (عمان: منشورات وزارة الثقافة، 2009)، ص: 320.

(11) ابن خلدون: المقدمة، ص: 55.

(12) ابن خلدون: المقدمة، ص: 165.

(13) ابن خلدون: المقدمة، ص: 169.

(14) ابن خلدون: المقدمة، ص: 44.

(15) ابن خلدون: المقدمة، ص: 166.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص: 174.

(2) سورة: الرعد: الآية: 11.

(3) الراغب: الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودى، (دمشق . بيروت: دار العلم، 1991)، ص: 619.

رابعاً: التغيير بما في النفس حالة إرادية داخلية، تتطلب الشجاعة في التخلي عن القيود المجتمعية المعطلة للتغيير.

خامساً: يهدف التغيير المطلوب في النفس الإنسانية إلى الارتقاء الفكري والروحي بالإنسان والالتزام بالمبادئ الجديدة القائمة على الإحساس بالآخر والعيش له كما يحس لنفسه ويعيش لذاته، "أي تحمله على أن يكون إنسانا في سلوكه وفي معاملته للآخرين" [4].

سادساً: تلزم هذه الآية صورة التغيير ضمن إطار الخير والمصلحة وإقامة العدل ودفع الظلم وإزالة الأسباب التي تقود إلى العداوة بين أفراد المجتمع المسلم. "إن الله لا يغير ما بقوم من عافية، ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم، بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره"[1].

سابعاً: التغيير المشهود في المجتمع يشكل بشرى من خاتم النبيين للناس كافّة بنبذ عبودية البشر للبشر إلى عبادة رب البشر من خلال دخولهم في الدين الجديد إيماناً وعقيدة وتشريعاً لتنظيم الأمور الدينية والدنيوية، وكان هذا بمثابة النظام الاجتماعي بشكله الجديد الذي "يسمو كثيرًا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل"[2].

جاء الأمر الرباني بالتغيير لبناء نظام حياة مختلف يقوم على أفضلية فعل الخير والأمر بالمعروف والإيمان، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

والتغيير عند العرب ووفق المفهوم القرآني ظاهرة كونية تجلّت لهم في مشهد كوني يومي في الحركة المستمرة لتبدل منازل الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار، يقول ابن عاشور: "زَادَهُمُ اللَّهُ عِبْرَةً وَتَعْلِيمًا بِأَنَّ لِلشَّمْسِ سَيْرًا لَا يُلَاقِي سَيْرَ الْقَمَرِ، وَلِلْقَمَرِ سَيْرًا لَا يُلَاقِي سَيْرَ الشَّمْسِ وَلَا يَمُرُّ أَحَدُهُمَا بِطَرَائِقِ مَسِيرِ الْآخَرِ وَأَنَّ مَا يَتَرَاءَى للنَّاس من مُشَاهدَة الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي جَوٍّ وَاحِدٍ وَفِي حَجْمَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ"[4]، وهي حالة يقرها القرآن الكريم في البشر على مر التاريخ والقرون، فقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5]، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[6]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[1].

---

(4) البهي: محمد: القرآن والمجتمع، (القاهرة: دار غريب للطباعة، 1976)، ص: 79.

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، م13، (الأردن: مؤسسة الرسالة، 2000)، ص: 121.

(2) بارت: رودي: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، (مصر: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص: 20.

(3) سورة آل عمران: الآية: 110.

(4) ابن عاشور: محمد الطاهر: التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984)، ص: 19- 23.

(5) سورة الأنفال: الآية: 52- 53.

(6) سورة الرعد: الآية: 11.

(1) سورة الأعراف: الآية: 100.

فالتغيير في الإسلام تحول نحو تطهير النفوس، وتعديل في سبل الحياة، ينقل "من ضلال مبين وحيرة وتخبط إلى عهد حضاري إنساني، قوامه ما في القرآن الكريم من مبادئ وحكم، وهي مجموعة من المبادئ تكون نظاماً اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، وسلوكا أخلاقياً، يكفل لهم الترابط القوي، وينقذهم من التمزق والفرقة"[2].

التغيير مسألة مرتبطة ارتباطا وثيقاً بثقافة المجتمع ومتشابكة مع وشائجه ومشاكله[3]، ومخططاته وأولوياته ووسائل تطبيق هذه المخططات لتحويل الأهداف إلى واقع[4]. وأما المنهج والأسلوب فقد كان رؤية واضحة بصيرة وبصر، مؤيدة بوحي السماء والهدي الرباني ونبي لا ينطق عن الهوى، فالمنهج والاستراتيجيات واضحة ومناسبة صوب تحقيق الأهداف وتوصيل الرسالة للمجتمع الجديد[5].

شهد المجتمع العربي قبيل الإسلام بقرن ونصف من الزمان تهاوي ممالك ودول عربية عمّرَت لقرون بل وصلت في عمق التاريخ إلى الألف الأول قبل الميلاد، وقد ولّد هذا التهاوي فكراً هروبياً تبريرياً، وإنساناً مقهوراً توالت عليه أزمنة من الهزائم والضعف فكّكت عوامل لحمته الحضارية بكافة أنساقها الاجتماعية والثقافية. وأفرزت هذه الفترة غياب الوعي العميق والطرح المؤسسي، وساد بديلاً عن هذا عقلية التبرير والرأي القائم على الأوهام بشعارات بلاغية، امتلأت بمفردات القتال والاحتراب والثأر، فغصت الأشعار بالبكائيات والهجائيات، وهي مؤشرات انهزام مجتمعي من الداخل، وتأزمات تنبئ بالتفاني[6] إلى أن قيّض الله تعالى لهذه الأمة بزوغ فجر جديد يعيدها إلى الهدى والريادة ليس للمجتمع العربي في الحجاز فقط، بل يتعدّاه إلى الناس كافة.

بدأ استعداد الثقافة العربية لقابلية التغيير مكبلاً بالمعوقات السببية المجتمعية المتوارثة ولكن لم يكن الوعي بحتميته غائباً في وعيهم، وقد مثلته في الشعر الجاهلي أشعار فحولهم وصعاليكهم[1]. ولكن ذلك لم يكن ليشكّل عندهم حالة استعداد للتغيير الشامل الذي يذهب بهم إلى ما صاروا إليه بعد بزوغ فجر الإسلام[2]، والذي ضبط معايير التغيير هذه ضمن طرفي الثابت الديني والمتغير الحياتي[3].

خاطب رسول الإسلامﷺ العقول والقلوب، واستهدف فكر المجتمع موجهاً وهادياً، وواضعاً للأطر التي تؤسس وتخطط للمجتمع الجديد[4]، بسياسة خطوات التحول المدروسة، ووفق مقتضيات المواقف وأحايين الفرض، فكان تبيان الثواب والعقاب في مواقف الحلال والحرام في مجتمع كان يحلل الخمر والزنا، وليس من السهل تحريمه بالأمر الواحد، بل بالحالة الموقفية إلى أن تمكن الإيمان في نفوس الناس، وفيه هذا الشأن روي عن أم المؤمنين عائشة

---

(2) البهي: القرآن والمجتمع، ص: 69.

(3) كوش: دوني: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: قاسم المقداد، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002)، ص: 21.

(4) مسعود: مجيد: التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي، (الكويت: عالم المعرفة، 1984)، ص: 7.

(5) حول مفهوم الاستراتيجية والمنهج والرؤية انظر: هلال: محمد عبد الغني حسن: مهارات التفكير والتخطيط الاستراتيجي: كيف تربط بين الحاضر والمستقبل، (مصر الجديدة: مركز تطوير الأداء والتنمية، 2007)، ص: 11؛ سويدان: طارق محمد: العدلوني: محمد أكرم: كيف تكتب خطة استراتيجية ؟ الرياض: قرطبة للنشر والتوزيع، 2004)، ص: 18.

(6) حول العقلية التبريرية انظر: طالب: محمد سعيد: الثقافة والتنمية المستقلة في عصر العولمة "التخلف العربي ثقافي أم تكنولوجي"، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2005)، ص: 170.

(1) أبو حاقة: أحمد: الالتزام في الشعر العربي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، ص: 66- 67؛ مروة: حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ط5، ج1، (بيروت: دار الفارابي، 1985)، ص: 276.

(2) الدوري: عبد العزيز: التكوين لتاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، ط4، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص: 33.

(3) الجندي: أنور: معلمة الإسلام، ط2، ، (لقاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1989)، ص: 584.

(4) القرشي: علي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبى، (لقاهرة: الزهراء للإعلام العربى، 1989)، ص: 106- 141.

رضي الله عنها، قالت: «إنَّ النكاح في الجاهلية كان علىٰ أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلىٰ الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلىٰ فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتىٰ يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون علىٰ المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتىٰ يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح رابع يجتمع الناس فيدخلون علىٰ المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا كن ينصبن علىٰ أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته به، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك. فلما بُعِثَ محمدٌ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلاّ نكاح الناس اليوم»[2][(5)]، وهذه حالات فقط وليست عند كل العرب، ومن هنا جاء الإسلام دين تفكر وتدبر وعظة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(1)]. وقد استطاع النبي محمد ﷺ في ثلاثة وعشرين عاماً أن يبني مجتمعاً تغيرت كل معتقداته ومفاهيمه في كافة أنساق الحياة[(2)] بفعل آيتين شكّلتا عمود التغيير، وهما: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[(4)]، و﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(5)] وهما أول آية في القرآن الكريم، وثاني ما تنزل عليه بعدها[(6)].

تحولات الدراسة:

إذابة مفهوم الزعامة التقليدية والعصبية القبلية.

كانت مضامين الزعامة القبلية التقليدية تصوغ واقعاً ثابتاً للفوقية المتسلطة في المجتمع العربي قبيل الإسلام، فاقتادت الناس في نواحي معيشتهم أجمع. وكان مدلول الزعامة المتوارث يجتاز في مراحله أفراد المجتمع ضمن دائرة الأسرة إحلالاً للأبناء محل الآباء، والذي يتطلب إخضاع بقية بطون القبيلة أو القبائل، واستمر هذا الإجراء قروناً، سلطة أبوية متوارثة، وإذلالاً لبقية مكونات المجتمع من البطون والقبائل، واستوجب هذا الأمر حالة من الصراع والطغيان والاستقواء والفوقية القدرية.

سعى النبي ﷺ إلى تجاوز هذا الميراث الذي جثم على مكونات المجتمع أحقاباً طويلة، وتطلب هذا التبدل تضحيات ضخمة في وجه القيادات المتوارثة لقرون خلت، فقد كانت هذه العقلية رهين الثبات وكراهية التحول

---

(5) البخاري: محمد: صحيح البخاري، كتاب: الحيل، باب: الحيلة في النكاح، ، كتاب: النكاح، باب: من قال لا نكاح إلا بولي، (جدة: دار ابن الجوزي، 1425 هـ- 2004)، ص: 1082- 1083. رقم الحديث: 5127؛ أبو داود: سليمان: سنن أبي داود، طبعة مصححة ومرقمة ومرتبة بإشراف: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، كتاب الجهاد، باب الوفاء بالعهد، كتاب: الطلاق، باب: في وجوه النكاح التي يتناكح بها أهل الجاهلية، (الرياض: دار السلام، 1420هـ- 1999)، ص: 329- 330. رقم الحديث: 2272.

(1)- سورة غافر: الآية: 21- 22.

(2) ابن عاشور: محمد الطّاهر: النّظام الاجتماعي في الإسلام، (القاهرة: دار السّلام للطّباعة والنّشر والتوزيع والترجمة، 2005)، ص: 74.

(4) سورة: العلق: الآية: 1.

(5) سورة: القلم: الآية: 1.

(6) الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الطبري، م1، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1987)، ص: 542.

وعدم قبول التغيير[7]. وكان "من مظاهر فضل النبي ﷺ أنه ارتقى بالعرب إلى مستوى التحضّر فوحّد صفهم وأقام لهم دولة وجعل منهم أمة، وصفها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[8]، إن في ذلك لرحمة! رحمة أن يعيش العربي في ظلال دولة مدنية، وأمة متحضّرة، وفي سبيل فكرة مستنيرة، لا أن يعيش في صراعات قبلية، واقتتال على الناقة وغيرها في سبيل أفكار رجعية أو عصبية منتنة، "(1) كما كان يسميها النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنة"[2]. ويقول أيضا الرسول الكريمﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»[3]، و"ليس لفكرة الأمة الإسلامية مقابل في فكر الغرب ولا في تجربته التاريخية. فالجماعة الإسلامية، وهى تجّمع من المؤمنين يؤلف بينهم رباط سياسي وديني في آن واحد، ويتمحورون حول كلام الله سبحانه وتعالى، والفرد يندمج في الإسلام بالجماعة المؤمنة بالتساوي عن طريق شهادته، الفردية واستبطان إرادته وصفاته الخاصة كمؤمن، فالنية المعلنة والجهر بالكلام شرطان من شروط الانتماء إلى المجتمع. وبصورة تلازمية؛ يحدد الامتثال لمشيئة الله البنية الاجتماعية، وهكذا تكون النظم التأسيسية للجماعة مشروطة بالعبادة الواجبة عليها نحو الله"[4]. ويقول الباحث قسطاكي حمصي (1858- 1941): "إذا كان سيد قريش نبي المسلمين ومؤسس دينهم، فهو أيضا نبي العرب ومؤسس جامعتهم القومية، وكما أنه من الحمق والمكابرة أن ننكر أن ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبيات الفرعية في نفوس القبائل، بعد أن أنهكها القتال في الصحراء، وتناحر ملوكها في الشام والعراق تناحراً أطال أمد الحماية الرومانية والفارسية في البلدين الشقيقين حتى الفتح الإسلامي. فمن الخطأ أن ننكر ما للرسول العربي الكريم ﷺ وخلفائه من يد على الشرق!. . . والمنافحة لتحرير الشرق من رق الرومان وأسر الفرس. إن سيد قريش هو المنقذ الأكبر للعرب من فوضى الجاهلية، وواضع حجر الزاوية في صرح نهضتهم الجبارة المتأصلة في تربة الخلود"[5].

التحوّل الثاني: هو التحوّل الديني من عبادة آلهة وضعية متعدّدة إلى عقيدة التوحيد.

وسعت قريش وقبائل الجزيرة بكل ما أوتوا إلى تقويض أي فكرة للتغيير تفقدهم جزءاً من مكتسباتهم التي كرستها العنصرية القبلية استعلاءً وتكبراً، وحفاظاً على موروث الآباء والأجداد من أعراف وتقاليد وآلهة. والهدف الآخر هو أن تغيير العقلية في منحى الموروث الديني وتعديل مقاييسه أمرٌ صعب ولا تقوى عليه إرادتهم في التغير أمام تعاليم الإسلام[1]. وعندما ظهر من بينهم سيدنا محمد ﷺ، ودعا الناس إلى الإسلام، فانتشر انتشاراً سريعاً، "وقد قضى على عادات قومه الوثنية، ووحّد قبائل العرب، وأثار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد، وهذّب أخلاقهم ولين

---

(7) عبد الجواد: محمد رأفت: مبادئ علم الاجتماع، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1983)، ص: 120.

(8) سورة: آل عمران: الآية: 110.

(1) ياقوت: محمد مسعد: دور الرسول ﷺ في تحضّر العرب.www.alukah.net

(2) " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ" قالها رسول الله ﷺ عندما ضرب رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنْ الْأَنْصَار " فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا للأنْصَارِ !! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ !! فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ !!" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ: " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ" يعني العصبية والتفاخر بالقبائل. انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾، ص: 1030- 1031. رقم الحديث: 4907.

(3) البخاري: صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، ص: 259. رقم الحديث: 1294؛ الذهبي: محمد: الكبائر، تحقيق: أبو الحسين المكي، راجعه: نزار الباز، (مكة: مكتبة نزار الباز، 1425هـ- 2004)، ص: 154.

(4) بوازار: مارسيل: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، (بيروت: منشورات دار الآداب، 1983)، ص: 182- 183.

(5) قسطاكي: حمصي: مجلة الفتح القاهرية، نقلاً عن: محمد شريف الشيباني، 1930م، ص: 183.

(1) شلبي: رؤوف: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي- مناهجها وغاياتها، ط3، (الكويت: دار القلم، 1982)، ص: 406.

طباعهم وقلوبهم وجعلها مستعدة للرقي والتقدم، ومنعهم من سفك الدماء ووأد البنات، وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد ﷺ تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن في نفسه قوة فوق قوة البشر، فكان ذا فكر نير، وبصيرة وقيادة"[2]. وساق هذا إلى أفق تحوّل آخر وهو التحوّل المجتمعي نحو العدالة والمساواة ونبذ العبودية والفوارق الاجتماعية، وجاء القرآن الكريم بعدد من الآيات الكريمة التي تؤكد على قيمة هذا التحوّل، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾[3]، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4]، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[5]، ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[6]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تحتاج إلى وقفات مطوّلة لا يتسع المجال للإسهاب فيها.

وفي ضرورة عقلانية التغيير كان لا بد من التدرج في التحريم ثم الثبات وحماية التغيير. وقد أحسن جوستاف لوبون في وصف هذه الحالة فقال: "أنني لا أدعو إلى بدعة محدثة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نبيه محمد، فكان أميناً على بث دعوته بين قبائل تلهت بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذذت بترهات الجاهلية"[7] فجمع الصفوف المبعثرة، ووحد الكلمة، ووجه قلوبهم لعبادة الله، ". . . فرسول كهذا جدير باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ أنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحض على الخير والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى"[1].

اتسمت عناوين التغيير الأساسية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم على الملامح الثلاثة التالية: ترسيخ مفهوم الحق[2]3، وأن الخلافة مفهوم سياسي من حيث ضرورة إقامة العدل والمساواة، ومفهوم ديني بما يعبّر به بطاعة الله ورسوله[3]، وأن علاقة الحاكم بالرعية تقوم على إطاعة ولي الأمر من جهة، ومحاسبة الخليفة و ردعه إذا خرج في حكمه عن ضوابط الشريعة[4]، والخروج عليه لتغييره إذا جار على الرعية[5].

حركة التاريخ: الحركة فعلٌ يكسر السكون، وفيها ننتقل من موضع إلى آخر، ومن القوة إلى الفعل تدريجياً، والتدرج يحتاج إلى الوقت، يطول ويقصر، والتاريخ هو من يُعرّف بالوقت وتدرجاته، والتاريخ "التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال"[6]، و"بالتاريخ عرف الناس أمر حجّهم وصومهم وانقضاء عُدَد نسائهم، ومِحَلّ ديونهم"[7]. ويصف حسين مؤنس في كتابه الحضارة حركة التاريخ بأنها "نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد بما تأتي به منابعه، وما تأتي به

---

(2) آرلونوف: مقالة " النبي محمد"، مجلة الثقافة الروسية، ج7، عدد9، نقلا عن: https: //ar.islamway.net.

(3) سورة الإسراء: الآية: 70.

(4) سورة البقرة: الآية: 256.

(5) سورة ق: الآية: 45.

(6) سورة الغاشية: الآية: 22.

(7) لوبون: جوستاف: حضارة العرب، نقله إلىٰ العربية: عادل زعيتر، (القاهرة: عيسىٰ البابي الحلبي، 1389هـ- 1969)، ص: 67.

(1) جوستاف حضارة العرب، ص: 67.

(2) (الغنوشي: راشد: الحريات العامة في الدولة الإسلامية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1993)، ص: 102.

(3) حول خطبة أبي بكر، انظر: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، (بيروت: دار صادر، 1960م،)، ص: 127.

(4) شلق: الفضل: الأمة والدولة، (بيروت: دار المنتخب، 1993)، ص: 148؛ عمارة: محمد: الإسلام وفلسفة الحكم، ط2، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979)، ص: 43- 44- 65.

(5) ناجي: معروف: أصالة الحضارة العربية، (بيروت: دار الثقافة للطباعة، 1975)، ص: 264.

(6) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1983)، ص: 7.

(7) ابن خياط: خليفة: تاريخ خليفة بن الخياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط2، (الرياض: دار طيبة، الرياض، 1982)، ص: 5.

روافده"[8]. والحركة حاجة إنسانية تنشدها كل الأمم والشعوب على مر الأزمان منذ بدأ الإنسان يكون أنوية مجتمعاته الأولية في العصور الحجرية، فمن خلال الحركة انتقل ببطء شديد إلى مرحلة الاستقرار واكتشاف النار وبناء بيوته وتكوين مجتمعاته، فانتقل من السكون إلى الحركة، ومن القوة إلى الفعل، فحركة التاريخ حركة دائبة لا تتوقف ولا تنتظر من يتأخر عن تطوّر مسيرها، وفيها تتجلّى لنا ملامح الماضي بوقائعه المفصلية، وفي هذه الحركية نفهم الحاضر بتراكم الخبرات التي تولّدت عبر حركة التاريخ، وهو فهم نسبي يتفاوت بين جماعة بشرية وأخرى، وهذا التفاوت في فهم حركة التاريخ يفرز تفاوتاً في خلق مجتمعات متخلّفة وجماعات متقدمة. وحركة التاريخ لا تتوقف في تكريس الحاضر بل تمضي بنا إلى المستقبل[1].

نلاحظ تباين الحس التاريخي عند العرب قبل الإسلام بين الحواضر والبادية وبين الممالك وبين العرب المترحلين، فنجد وعياً نسبياً في الوعي بالتاريخ وحركة التاريخ عند عرب ممالك جنوب الجزيرة العربية وممالك الأنباط وتدمر والحضر وسواهم، وقد احتاج عرب الحجاز ونجد وقتاً أطول للحس التاريخي بتعاقب الزمن[2]، فكان التاريخ عندهم قصة للعبرة، أو للمسامرة، أو ذكر عجائبيات وغرائب الماضي بأسلوب التهويل والخرافة.

ولعل مرد هذا التباين بين العرب قبل الإسلام في الحس التاريخي والوعي به يعود إلى مستوى الوعي بفلسفة الحياة وجدواها وتفسير مغزى وجودها. وقد يكون هذا المغزى دينياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو حضارياً يحرّك في المجتمع الإنساني ضرورة الوعي بالتاريخ وحركيته[3]. فأيام العرب التي أرّخوا بها أيامهم لا تشكّل وعيا بحركية التاريخ، بل ثباتاً وجموداً عند أيام لا تشكّل لهم سوى العبرة والذكرى، فلم تسهم في تشكيل روابط تنتظم الماضي متسلسلاً وصولاً إلى حاضرهم، فهي قصص لا تواريخ[4]. ولعل عدم الاستقرار ودوام الترحال في صحراء قاسية فقيرة لم تساعد على خلق وعي ثقافي بفكرة الزمن إلا بمقدار ما يسير أحوالهم المعيشية اليومية[5]، فحركة التاريخ خارج حاضره الزمني وفضائه المكاني لم تتشكّل في أساسيات معاشه[6].

إن حركة التاريخ بمفهومها الحضاري تحتاج إلى محفزات تكسر إيقاع مظاهر الحياة اليومية الرتيبة النمطية، والعربي في هذا محافظ إلى أبعد مدى على الموروث ومنساق غالباً إلى إجماع القبيلة وعقلها الجماعي. وكان المحفز الأكبر لتوليد الحس التاريخي والوعي الحضاري بحركيته هو ظهور الإسلام في الحجاز.

ويبين "فيليب حتي" هذا التغيير في صدر الإسلام بقوله: "إذا نحن نظرنا إلى محمد ﷺ من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد؛ يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر"[1]. "وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبّارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة. . . بل تدفق

---

(8) مؤنس: حسين: الحضارة، ط2، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998)، ص: 125. رقم 237.

(1) صباغ: ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي، (دمشق: منشورات جامعة دمشق، 1989)، ص: 16.

(2) محل: سالم أحمد: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، عدد: 60، (قطر: كتاب الأمة، 1997)، ص: 43.

(3) الشرقاوي: عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب، (بيروت: دار العودة، بيروت، د.ت)، ص: 16.

(4) الخطيب: نورالدين: نشأت التأريخ والمؤرخون العرب، (بيروت: شركة النعمان، 1992)، ص: 66.

(5) محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، ص: 43.

(6) الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص: 158.

(1) فيليب: الإسلام منهج حياة، ص: 56.

الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي"[2].

وعلم التاريخ "هو ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها، فهو يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها، ولكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول- عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث وتوضيح علاقة السببية بينها- أن يفسّر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وأن يبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث"[3]. يقول مالك بن نبي: "إن العواصف الجوية والأعاصير تجر معها غالباً سيولاً هائلة من الماء، سيولاً تترك وراءها في البلد الذي تجتاحه الخراب والموت، ولكنها تترك أيضاً على وجه الأديم طمياً تتجدد به الحياة في هذا البلد، فتنشط وتنمو فيه الطبيعة الجديدة بأنواع النبات والحيوان المتجدد، فكذلك شأن الأحداث الكبرى في التاريخ إنها تجر وراءها الموت والخراب، وتخلف طمياً مخصباً، طمياً من دماء الشهداء والأبطال، ولكنها تخلف أيضاً طمياً من نوع آخر تخلفه في العقول، حيث تترك بذوراً تنبعث منها الأفكار التي تغيّر مجرى التاريخ ووجه العالم"[4].

الخطاب الديني: الخطاب في اللغة "هو مراجعة الكلام"[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[6]. وفي المصطلح الخطاب هو: "كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تمّ فيها"[1]. وحين يكون الخطاب دينياً فهو "خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد بالاقتضاء أو بالوضع أو التخيير" [2]4. وتحتكم أسس الخطاب الديني الإسلامي في مصادر التشريع وفي اللغة: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع[3]، والقياس[4]، واللغة العربية، قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5].

جاء الخطاب الديني الإسلامي للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[6]. ويسعى هذا الخطاب إلى تحقيق السعادة للنفس البشرية، قال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن

---

(2) توينبي: آرنولد: التاريخ: محاولة في التفسير، اختصار: سومر فل، (باريس: منشورات غاليمار، 1951)، https: //books.google.com.sa.

(3) الشيخ: رأفت غنيمي: فلسفة التاريخ، (القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1987)، ص: 42.

(4) ابن نبي: مالك: تأملات، ط3، (دمشق: دار الفكر، 1977م)، ص: 32.

(5) ابن منظور: لسان العرب، مادة "خطب".

(6) سورة ص: الآية: 20.

(1) الطيار: أحمد عبدالله: "تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد"، العدد: 22، المجلد: 3، القاهرة: حولية كلية أصول الدين القاهرة، 2005 م.

ص 12.

(2) (4) أبو الرشتة: عطا: دراسات في أصول الفقه "تيسير الوصول إلى الأصول"، (الأردن: دائرة المكتبات والوثائق الوطنية عمّان، 1410هـ- 1999)، ص: 7.

(3) حسن: محمود عبدالكريم: المصالح المرسلة، (مصر: دار النهضة، 1995)، ص: 23.

(4) حسن: المصالح المرسلة، ص: 24.

(5) سورة: الزخرف: الآية: 3.

(6) سورة: سبأ: الآية: 28.

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾[7]. وهو خطاب بَنّاء ومؤثر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[8].

الخاتمة

أولاً: أفرزت التغيرات في المجتمع الإسلامي في العهد النبوي تأثيرات مباشرة على مظاهر السلوك الاجتماعي، وإحلال العدالة الاجتماعية، والقضاء على مظاهر التغول والظلم الاجتماعي الذي كان متفشياً في المجتمع العربي قبل الإسلام وكان ضحاياه من الفقراء والمستضعفين. وقد جاءت رسالة الإسلام لتحقق هذا التغيير في نظام مجتمع المسلمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]، وهذه دعوة قرآنية واضحة للتخلص من أحادية الرؤية وضيقها إلى فضاءات الإرادة الإلهية بلباس التقوى والطاعة، فكانت أولى مهام النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الناس إلى عبادة رب العباد للتحرّر من عبوديتهم للبعاد.

ثانياً: إن المضي في التغير المجتمعي بني على أساس اللحمة الدينية أمام فكر القبيلة والتقوقع في ضيق مرامها الاستعلائية، فكانت الدعوة إلى أخوة الدين ورباط العقيدة طوق النجاة من براثن الجاهلية إلى آفاق الإنسانية الرحبة على أساس الأخوة في الدين، فالكرامة الإنسانية تكون على أساس التقوى﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾[2].

ثالثاً: كان الخطاب النبوي خطاباً إنسانياً، يخاطب الضمائر والعقول لإزالة الفساد ورفع ربوبية العباد إلى عبادة رب العباد وبالدعوة القائمة على الموعظة الحسنة والقدوة الحسنة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم: مصطفى وأحمد عبد القادر وأحمد حسن الزيات ومحمد علي النجار، المعجم الوسيط، تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت.
- ابن خلدون: عبد الرحمن: المقدّمة، عمان: منشورات وزارة الثقافة، 2009م.
- ابن خياط: خليفة: تاريخ خليفة بن الخياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط2، الرياض: دار طيبة، الرياض، 1982م.
- ابن سيده: علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ - 2000م.
- ابن عاشور: محمد الطاهر: التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م.
- ابن منظور: محمد: لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر حيدر، راجعه: عبد المنعم إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ - 2003م.
- ابن نبي: مالك: تأملات، ط3، دمشق، دار الفكر، 1977م.

(7) سورة: النور: الآية: 55.

(8) سورة: الأنفال: الآية: 2.

(1) سورة: الرعد: الآية: 11.

(2) سورة: الحجرات: الآية: 13.

- أبو الرشتة: عطا: دراسات في أصول الفقه "تيسير الوصول إلى الأصول"، الأردن: دائرة المكتبات والوثائق الوطنية عمّان، 1410هـ - 1999م.
- أبو حاقة: أحمد: الالتزام في الشعر العربي، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.
- أبو داود: سليمان: سنن أبي داود، طبعة مصححة ومرقمة ومرتبة بإشراف: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام، 1420هـ - 1999م.
- آرلونوف: مقالة "النبي محمد"، مجلة الثقافة الروسية، ج 7، عدد 9. نقلا عن: https: //ar. islamway. net
- بارت: رودي: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، مصر: المركز القومي للترجمة، 2011م.
- البخاري: محمد: صحيح البخاري، جدة: دار ابن الجوزي، 1425هـ - 2004م.
- البهي: محمد: القرآن و المجتمع، القاهرة: دار غريب للطباعة، 1976م.
- بوازار: مارسيل: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، بيروت: منشورات دار الآداب، 1983م.
- تاريخ الطبري، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1987م.
- توينبي: آرنولد: التاريخ: محاولة في التفسير، اختصار: سومر فل، (باريس: منشورات غاليمار، 1951)، https: //books. google. com. sa
- جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، الأردن، مؤسسة الرسالة، 2000م.
- الجرجاني: علي بن محمد: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984م.
- الجندي: أنور: معلمة الإسلام، ط2، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1989م.
- حتي: فيليب: الإسلام منهج حياة، ترجمة: عمر فروخ، بيروت: دار العلم للملايين، 1983م.
- حسن: محمود عبدالكريم: "المصالح المرسلة "، مصر: دار النهضة، 1995م.
- الخطيب: نور الدين: نشأت، التأريخ والمؤرخون العرب، بيروت: شركة النعمان، 19952م.
- الدوري: عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، 4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003م.
- الراغب: الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودى، دمشق. بيروت: دار العلم، 1991م.
- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983م.
- سويدان: طارق محمد: العدلوني: محمد أكرم: كيف تكتب خطة استراتيجية ؟ الرياض: قرطبة للنشر والتوزيع، 2004م.
- الشرقاوي: عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب، بيروت: دار العودة، بيروت، د. ت.
- شلبي: رؤوف: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي- مناهجها وغاياتها، الطبعة 3، الكويت: دار القلم، 1982م.
- شلق: الفضل: الأمة والدولة، بيروت: دار المنتخب، 1993م.
- الشيخ: رأفت غنيمي: فلسفة التاريخ، القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1987م.
- صباغ: ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي، دمشق: منشورات جامعة دمشق، 1989م.

- طالب: محمد سعيد: الثقافة والتنمية المستقلة في عصر العولمة "التخلف العربي ثقافي أم تكنولوجي"، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2005م.
- الطبري: محمد بن جرير:
- الطيار: أحمد عبدالله: "تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد"، العدد: 22، المجلد: 3، القاهرة: حولية كلية أصول الدين القاهرة، 2005م.
- عبد الباقي: صلاح الدين محمد: السلوك الفعال في المنظمات، مصر: دار الجامعة الجديدة، 2004م.
- عبد الباقي: محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت: دار الفكر، 1987م.
- عبد الجواد: محمد رأفت: مبادئ علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1983م.
- عثمان: فاروق السيد: قوى إدارة التغيير، مصر: دار الوفاء للنشر والتوزيع، 2000م.
- عقيلي: خليل بن عمر: الإدارة: أصول وأسس ومفاهيم، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 1997م.
- عمارة: محمد: الإسلام وفلسفة الحكم، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979م.
- الغنوشي: راشد: الحريات العامة في الدولة الإسلامية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1993م.
- الفراهيدي: أحمد: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ت.
- القرشي: علي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبى، القاهرة: الزهراء للإعلام العربى، 1989م.
- القزويني: أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، لبنان، دار الفكر، 1979م.
- قسطاكي: حمصي: مجلة الفتح القاهرية، نقلاً عن: محمد شريف الشيباني، 1930م.
- كوش: دوني: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: قاسم المقداد، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002م.
- لسان العرب، لبنان: دار صادر، د. ت.
- لوبون: جوستاف: حضارة العرب، نقله إلىٰ العربية: عادل زعيتر، القاهرة: عيسىٰ البابي الحلبي، 1969م.
- محل: سالم أحمد: محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، عدد: 60، قطر: كتاب الأمة، 1997م.
- مروة: حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ط5، بيروت: دار الفارابي، 1985م.
- مسعود: مجيد: التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي، الكويت: عالم المعرفة، 1984م.
- مطلوب: أحمد: معجم المصطلحات البلاغية، بيروت: مكتبة لبنان، 2000م.
- المقدسي: أنيس: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، بيروت: دار العلم للملايين، 1998م.
- مؤنس: حسين: الحضارة، ط2، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998م. رقم 237.
- ناجي: معروف: أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة للطباعة، بيروت: 1975م.
- الندوي: أبي الحسن علي الحسني: السيرة النبوية، اعتنى بطبعته ومراجعته الأنصاري، عبد الله بن إبراهيم، صيدا: المطبعة العصرية للطباعة والنشر، 1979م.
- النّظام الاجتماعي في الإسلام، القاهرة: دار السّلام للطّباعة والنّشر والتوزيع والترجمة، 2005م.
- هلال: محمد عبد الغني حسن: مهارات التفكير والتخطيط الاستراتيجي: كيف تربط بين الحاضر والمستقبل، مصر الجديدة: مركز تطوير الأداء والتنمية، 2007م.
- ياقوت: محمد مسعد: محاضرة بعنوان: دور الرسول ﷺ في تحضّر العرب. www. alukah. net
- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، 1960م.

We will change between the movement of history and the religious concept of society "Islam was a model

Abstract: This research deals with the concept of change in the light of the concepts of history movement and the religious concept of society in the period of Islam, by addressing the issues of articulation formed a year of the life of the Arab society in the era of the first letter، The main issues discussed in this paper are: Dissolution of the concept of traditional leadership prior to the dawn of Islam, the religious shift from the worship of multiple gods to the doctrine of monotheism, the societal shift towards justice and equality, and the rejection of slavery and social differences.

The research tackles these issues from a methodological perspective. The application of the Qur'anic text and the Prophet's biography, while employing the heritage for the necessities of change and placing it in the context of some of the reality we are living today.

Keywords: Movement- Nation- Change- intellectual- Islam- Transformations- the society.